

مقال في المبحث

(بحث مقارن بين المبحث في الحضارة المصرية

والعقيدة الإسلامية)

للدكتور حامد طاهر

**أولًا: في الحضارة المصرية القديمة**

استطاع المصريون القدماء — في إطار اهتمامهم الشديد بظاهره الموت — أن يتوصّلوا لفكرة حياة أخرى بعد الموت أو المبحث، وهي فكرة هامة ، أصبحت بمرور الزمن ولوّقت طويلاً جداً (حوالي 1500 سنة) عقيدة دينية ، لها أصولها وطقوسها. يقول هنري باستيد في كتابه (فجر الضمير) : " لا يوجد شعب قديم او حديث بين شعوب العالم احتلت فيه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التي احتلتها في نفس الشعب المصري القديم " [63]

وتقوم فكرة المبحث على أن الحياة الدنيا التي يعيشها الإنسان وتنتهي بالموت سوف تعقبها حياة أخرى تعود فيها المروح إلى المجسد وتجري فيها محاسبة كل إنسان على إيمانه أو كفره ، وحسنته أو آثامه .

وقد أثبتت دراسة المصريات أن هذه المفكرة لم تظهر عند المصريين القدماء دفعه واحدة ، بل سبقها تاريخ طويل جداً من التطور الأخلاقي واستبطان أحمق الإنسان ، حيث راج المصريون يفرقون في كيان الإنسان بين جسده المظاهر للعيان وبين باطنه ومركزه القلب الذي يشمل كلًا من العقل والنفس . وحيينما يموت الإنسان تصعد هذه الأجزاء المباطنة إلى السماء ثم تعود إلى جسد الميت واحدة بعد الأخرى (بعد 7 أيام، أو 40 يوماً أو سنة كاملة) — ولهذا اهتم المصريون القدماء بقبور موتاهم وتحنيط أجسادهم مع وضع بعض الحاجيات المضورية مع الميت من طعام وشراب ومقتنيات خاصة به، وكذلك بعض التعاويذ التي تساعده في رحلته إلى العالم الآخر.

والمرحلة إلى ذلك العالم تبدأ بالحساب الذي يتضمن الموقف أمام محكمة (مكونة من 42 قاضيًّا يرأسهم الإله أوزير). وأمام هذه المحكمة يقوم الميت بتقديم اعتراضاته التي يفترض أن تكون صادقة ، والحكم عليها هو الذي يؤدي به إما إلى البراءة أو العقاب . وتمثل رسوم المعابد هذه المحاكمة بميزان دقيق جداً، توضع في إحدى كفتفيه ريشة طائر وفي الأخرى قلب الميت، حتى توزن أعماله الحسنة أو السيئة، وبالنسبة إلى المأشار يتم المقاء الواحد منهم إلى حيوان مفترس يقوم على الفور بتمزيق أعصابه وقدفها في مهوى الجحيم .

في بداية نشأة عقيدة (ما بعد الموت أو المبعث) كان يجري تقسيم الناس- كما كان الأمر عليه في الحياة الدنيا- إلى طبقتين: طبقة الملوك وكبار موظفي الدولة، وطبقة عامة الشعب، وهذه الأخيرة يدفنون في قبور ضيقة جداً، يجلسون فيها المقرنصاء، بحيث تلمس ركبهم ذقونهم، أما الطبقة العليا فيتم دفنون على ظهورهم ويوضعون في توابيت حجرية تتوسط حجرات واسعة، ومزينة بالرسوم الملوونة. لكن بعد مرور فترة طويلة من الزمن وضعف سلطة الملك تساوى الجميع في الدفن وأصبحوا يتمدرون على ظهورهم، بينما بقيت فقط مظاهر الفخامة مقتصرة على مقابر الملك.

ومن نتائج دراسة المصريات أن عودة قوى الإنسان المباطنة (القلب - العقل - النفس) إلى جسده بعد الموت هي التي تجعله يصبح روحًا (با)، ويعود إلى الحياة مرة أخرى ممتلكًا جميع قواه التي تساعده على المعيشة. ومن خلال هذه الحقيقة يتبيّن عدم توصل المصريين القدماء إلى الاعتقاد بخلود المروج ، أو أنهم عبروا عنها بأنها (أنا تفني) أو آرائهم في (الخلود بعد الموت) [فجر المضمير ، ص 67].

وهكذا يبدو أن البعث المصري يتوقف عند حدود معينة وهي المتمثلة في عودة المتوفى إلى الحياة في هذه الدنيا ، لكي يحيا فيها إما منعًا أو شقيًا. كما يبدو بوضوح أن كل إنسان له (بعثه) الخاص به ، وهذا يعني عدم شمول البعث للناس جميعاً، ودفعه واحدة، وأخيراً فلما فناء لهذه الدنيا وإقامة عالم آخر يبدأ من جديد محتويا على الجننة الخالدة والجحيم الدائم .

وعلينا ألا نغفل في هذا الصدد الدور الذي قام به كهنة مصر القديمة سواء في تكريس عقيدة البعث ، أو في تطوير مفهومها وتعديل بعض طقوسها.

وكما تبين الآن من دراسة المصريات القديمة أن الكهنة هم الذين كانوا وراء تأليف (كتاب الموتى) وهو عبارة عن حشد من التعاويذ التي كان يقرأون منها على رأس المتوفى أو يضعون بعضها في كفنه لكي تساعده على تبرير أفعاله أمام المحكمة. وسوف أقتصر هنا على مثال واحد مما كان يقوله المتوفى لهيئة المحكمة ، تأكيداً لمزاعمه واستعطافاً لأعضائها :

سلام عليكم أيها الآلهة

المذين في قاعة الصدق

والذين خلت أجسادهم من الخطيئة والمكذب

والمذين يعيشون على المصدق في عين شمس

أمام (حور) المساكن في قرص شمسه

انظروا : إنني آتى إليكم بدون خطيئة ،

وبدون شر، وبدون ذنب

إنني أعيش على الحق، وأفتدى من عدالة قلبي

لقد فعلت ما يقول به الناس، وما يرضي الإلهة

وقد أرضيت الإله بما يرحب فيه

فأعطيت الجميع خبزا ، والمعطشان ماء ،

والعريان لباساً ، ولمن لا أقارب له رمثاً

وصنعت قربانًّا مقدسًّا للآلهة

وقربانا من الطعام للموتى

فنجوني أنتم، واحموني أنتم

ولما تقدموا ضدي أية شكاية أمام الإله العظيم

لأنني إنسان طاهر المفم ، وطاهر الميدين

وأني من قال له كل من رآه : مرحباً ! مرحباً !

[ فجر الضمير ص 277 ]

لكن ما يحسب للمصربيين القدماء أن النظام الأخلاقي الذي أوجدوه بينهم في ذلك الزمن السحيق إنما قام على التفكير الطويل في منشأ الحياة وصيرورتها وتبيان لهم أن الحياة الدنيا ما هي إلا معبر إلى حياة أخرى، وأن لتطهير القلب والباطن عموماً قد تكون أسمى من المقوانيين التي تحكم الأفراد من الخارج ، ولذلك راحوا يفتثنون عن معايير الحق والخير ومسارب الشر والإثم ، وهذا ما جعلهم يسبقون العالم القديم في تقدير قيمة الضمير وإلقاء شأنه في حياة الأفراد .

ثانياً : المبعث في العقيدة الإسلامية :

في الإسلام، يقوم الملايمان على دعامتين أساسيتين : الملايمان بالله الواحد، والملايمان بالبعث بعد الموت . والرابط بين الدعامتين يتمثل في أن الله تعالى هو خالق كل شئ ، ورازق كل حي ، والعليم بكل ما يجرى في المكون ، وأنه تعالى أوجد الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، ودعاه بواسطة المرسل ، وبشتي المبراهين الحسية والمعقلية لعبادته ، وحثه على عمل الصالحات ، واجتناب المعاصي التي حددتها له . وقد جعل عمره في الدنيا محدوداً وينتهي بالموت .

حياة الإنسان إذن فترة اختبار كما أنها ابتلاء لمعرفة قدرته على مدى التزامه أو عدم التزامه بالتعاليم الإلهية . أما البعث المعبر عنه بالقيامة أو بالساعة فسوف يقع في (لحظة خطأ) لا يعلمها إلا الله وحده . وبعد هذه مباشرة تنتهي السماوات والأرض، ثم يحشر الناس جميعاً، والجنة أيضاً، إلى مكان شاسع وينتظرون حساب كل منهم ، حيث يحمل كتاباً أو سجلاً بكل ما فعله خلال حياته .

ووهناك الملائكة الذين يعرفون جيداً التمييز بين أهل الجنة وأهل النار، فيستقبلون الأولين بالترحاب ، ويسوقون الآخرين إلى عقابهم في الجحيم .

من الآيات الدالة على ما سبق :

— (وخلق كل شئ فقدره تقديرًا) [الفرقان: 2]

— (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) [الروم: 40]

— (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهدتين)

[الأنعام 117]

— (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) [المبقرة 30]

— (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفنين مت فهم الخالدون) [الأنبياء 34]

— (وما أمر الساعة إما كمح البصر أو هو أقرب) [المنحل 77]

— (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قادر. الذي خلق الموت والحياة)

لি�بلوكم أيكم أحسن عملا) [الملك 11، 2]

الأمر إذن جد لا لهو فيه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) [المؤمنون 115]. وبالتالي فإن كل إنسان مطالب بتحقيق إرادة الله من وجوده وهي : معرفته وعبادته ، وتعمير الأرض ، والتعامل مع الناس بالحسنى ، والحفاظ على البيئة المحيطة به ، وفي ذلك كله ، عليه ألا يقطع صلته بالله الذي خلقه ورزقه ، وهو الذي يميته ثم يحييه ، لكي يبعثه ويحاسبه على كل ما فعله في هذه الدنيا . ومما يلاحظ هنا أن الضمير الأخلاقي ليس حاسة تعمل وحدتها في داخل الإنسان ، أو مرتبطة بالتنظيم الديني الذي كان مستقرا لدى قدماء المصريين ، وإنما هو علاقة مستمرة بين الله والإنسان : فالله يعلم ويراقب ، والإنسان يعمل وهو متعدد بين قطبي المخوف والمرجاء — المخوف من غضب الله ، والمرجاء في عفوه ورحمته .

وبالنسبة لطقوس الموت في العقيدة الإسلامية ، يراعى تكريم جسد الميت فيتم غسله وتتطهيره جيدا بالماء ، ثم يوضع في كفن ، ويفضل الإسراع بدفنه في قبر من التراب الذي منه خلق . أما روحه فتنصعد إلى بارئها لتظل في مكان غير محدد حتى قيام الساعة .

وَهُنَا إِسْتِثْنَاءٌ وَحِيدٌ لِلشَّهِدَاءِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي الْمُعَارِكِ فَإِنَّهُمْ يُدْفَنُونَ كَمَا هُمْ — أَيْ بِدَمَائِهِمْ دُونَ غَسْلٍ — وَالْقُرْآنُ يَقُولُ (وَلَا تَحْسِبُنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عَنْ رَبِّهِمْ يَرْزَقُونَ) [آل عمران: 169]

وفي يوم الحساب ، يحمل كل إنسان سجل أعماله في كتاب ، لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . أما المؤمن فيمسك كتابه بيده اليمنى ، داعيا الجميع إلى قراءته وذلك دلالة على حسن مصيره ، وأما غيره من المكافر والمشركين والمنافقين فيمسكه بشماله أو يكون خلف ظهره ، مستجيرًا بما فيه ومتمنيا عدم استلامه له !

وبعد لمظلة المرحمة الشاملة التي وصف الله بها نفسه ، فإن يوم الحساب سوف يتسع لغفران بعض ذنوب المؤمنين بمشيئة الله تعالى (نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم) [الحجر: 49] ، وكذلك الاستجابة لشفاعة بعض الأنبياء تكريما لهم أمام أقوامهم (من ذا الذي يشفع عنده إله بإذنه) [البقرة: 255] .

وبعد أن ينتهي الحساب ، يقوم ملائكة على الأعراف ، يعرفون كلًا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم التي على وجوههم ، فيستقبلاون الأول بالترحاب والمدعوات ، ويسوقون الآخرين سوقا إلى مكانهم في الجحيم [سورة الأعراف: 43—51] . وهنًا لا بد من الإشارة إلى أن الخلود إنما هو لأهل الجنة ، أما أهل النار في بعض المؤمنين العصاة يمكن أن تشملهم رحمة الله وغضبه فينتقلون منها إلى الجنة بعد فترة معينة تكون تكفيراً لذنوبهم .

وعلى الرغم من تجاور الحضارة المصرية القديمة مع شبه جزيرة العرب (لا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر وصحراء سيناء) فإن فكرة أو عقيدة المبعث المصرية لم تصل — فيما يبدو — إلى عرب الجاهلية ، لأنهم عندما ظهر فيهم الإسلام أنكروا المبعث إنكاراً شديداً :

— (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لَا يبعث الله من يموت) [النحل:38]

— (زعم الذين كفروا أن لَن يبعثُوا) [المغابن:7]

— (وقالوا أئذنا كنا عظاماً ورفاتنا أئذنا لمبعوثون خلقاً جديداً) [الإسراء:49]

— (وقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا حِيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُبَعُوثِينَ) [الأనعام:29]

ولهذا نجد القرآن الكريم يفيض — في العديد من آياته — في تأكيد المبعث وبيان أهميته بل وضرورته كجزء أساسى لعقيدة المسلم ، و كنتيجة طبيعية ومنطقية لخلق الإنسان المti لَا تكتمل صيرورته إِلَّا بِه :

— (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إِنَّا كُنَّا فاعلين) [الأنبياء:104]

— (وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ) [الروم:27]

— (يوم يبعثهم الله جمِيعاً فينبئهم بما عملوا) [المجادلة: 6]

— (قل بِلِّي وَرَبِّي لَتَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتَنْبَئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) [التغابن: 7]

— (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعْيِدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) [يونس: 4]

ومن البراهين المحسوسة على إمكانية المبعث :

— (وَآيَةٌ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّةُ أَحْيَيْنَاهَا) [يس: 33]

— (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تَرَابٍ...) [الحج: 5]

وهكذا فإنَّ الذين ينكرون ويجادلون في عدم قيام المساحة أبعد ما يكونون عن الصواب :

— (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمْارِنُونَ فِي الْمَسَاعِدِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) [المشورى: 18]

كما يؤكِّد القرآن في أكثر من موضع أنه تعالى (يخرج المحى من الميت)

[آل عمران: 27، يومنس: 31، المرور: 19].

أما تحديد المقِيامة ، أو مجيء المساحة فهو من أمور الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمهها . وقد طلب المشركون من الرسول ، صلَّى الله عليه وسلم ، معرفتها فكانت الإجابة قاطعة :

— (يسألك الناس عن المساعة قل علمها عند الله) [الأحزاب: 69]

— (يسألون عن المساعة أيان مرساها قل علمها عند ربى) [الأعراف: 187]

ل肯ه تعالى حذر الناس جمِيعاً، أمواطاً وأحياء، من هولها:

— (إن زلزلة المساعة شاهد عظيم) [طه: 15]

— (والمساحة أدهى وأمر) [القمر: 46]

كما أنها ستكون مفاجئة، وفي لحظة خاطفة:

— (وما أمر المساحة إلها كلام البصر أو هو أقرب) [النحل: 68]

ومن المقصص ذات الدلالة المؤكدة للبعث ما ذكره القرآن الكريم عن الأشخاص الذين ذاموا بإرادة الله لسنوات طويلة ثم أيقظهم ليثبت بحالتهم إمكانية البعث التي تشبه الاستيقاظ من النوم، ومن ذلك:

— الرجل الذي مر على قرية مهجورة وتساءل: كيف يحيى هذه الله بعد موتها؟

فأمامه الله مائة عام ثم يقظه ! [المبقرة 259]

— والفتية الذين فروا بآيمانهم من عسْف قومهم إلى الكهف ، فلم يواظهم الله تعالى إما بعد 309 سنوات ! وأصبحوا آية من آيات قدرة الله على البعث ، انظر [اسورة المكف](#) 9 — [21]

— وإبراهيم ، عليه السلام ، الذى سأله قائلًا : (رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال أ ولم تؤمن ؟! قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال خذ أربعة من الطير فصر رهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) [المبقرة 260]

من نتائج المقارنة :

أولاً : أن عقيدة المبحث لدى المتصريين المقدماء تستند إلى تعدد الآلهة وتتنوع تخصصاتها، في حين أن العقيدة الإسلامية تعترف بالله الواحد الذي خلق الكون بقدرته ، وهو القادر وحده على حفظه وإعادته .

ثانياً: أن المبعث في العقيدة المصرية فردي، أي مختص بكل إنسان على حدة، في حين أنه في العقيدة الإسلامية فردي وشامل: فردي لكل إنسان وشامل لجميع البشر.

ثالثاً: أن المبعث في العقيدة الإسلامية يشمل الإنس والجن، بينما تخلو العقيدة المصرية من أي إشارة إلى الجن.

رابعاً: أن عقيدة المبعث المصرية لا تتحدث عن عالم آخر يتلو هذا العالم الدنيوي بعد فنائه، لذلك فإنها تعيد الإنسان المتوفى إلى الدنيا لكي ينعم فيها أو يشقى تبعاً لأفعاله.

خامساً: أن الحساب النهائي في العقيدة الإسلامية يقع في ساعة محددة في يوم واحد، بينما هو في العقيدة المصرية متاثر في أوقات مختلفة تبعاً ل渥ة كل شخص.

سادساً: أن المبعث في العقيدة الإسلامية يتحدث عن (خلق جديد)، يكون بالمطبع قابلاً لأنواع المنعيم الخالد في الجنة ومتقبلاً صنوف العذاب المرهيب في الجحيم، بينما تظل العقيدة المصرية دائرة في تلك الحياة الدنيا فقط.

أهم المصادر والمراجع :

— القرآن الكريم

— المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للمرحوم محمد فؤاد عبد الباقي

— فجر الضمير لتهيرمان ، ترجمة د.سليم حسن

---